لغتنا العربية والمجتمع

أ.د. علي توفيق الحمد

بين اللغة والمجتمع علاقة قوية، إنها علاقة تأثر وتأثير. فاللغة وسيلة اجتماعية للتواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع الواحد. والمجتمع طبقات اجتماعية متباينة في مستوياتها المختلفة، وقبائل وجماعات وذكور وإناث، وأطفال (صغار) وكبار، كلهم ينتمون إلى مجتمع عربي واحد، لغته واحدة عربية، و"هي إحدى اللغات السامية، وأرقاها مبنىً ومعنى، واشتقاقًا وتركيبًا، وهي من أرقى لغات العالم (١).

وبرغم كون لغة هذا المجتمع واحدة، فإن أداء هذه الجماعات على مستوى الإنجاز اللغوي متفاوت، يتأثر بعوامل عديدة، فقد يكون لكل قبيلة أو مجموعة قبائل سِمات لغوية (لهجية) خاصة بها، وكذا فإن لكل فئة أو جماعة – عمرية أو ثقافية أو مهنية – معجمًا خاصًا، وخصائص لغوية - لهجية – ربّما لا يعرفها، أو لا يستخدمها غيرهم (٢). وتبقى هذه المستويات تمثّل صورًا أدائية أو لهجات، تنتمي إلى أصل، أو لغة أم واحدة.

وإن تباعدت هذه اللهجات جغرافيًا أو زمنيًا، أو فيهما معًا تبعًا لتباعد متكلميها، تولّدت من كلٍّ منها لغة مستقلة، كما حصل مع اللغة السامية الأم، التي تولّد عنها – منها – اللغات السامية المختلفة المعروفة، التي تباعدت لغاتها بنسب متفاوتة على مستوى الأصوات والمباني الصرفية، أو على مستوى المعجم أو الدلالة، أو مستوى التراكيب بنسبة أقلّ، وهكذا تولّدت – أو تتولّد – لغات مستقلة تتقارب أو تتباعد عن اللغة الأم، وعن بقية أخواتها بنسب وخصائص متفاوتة مع مرور الزمن.

أما فيما يخصّ لغتنا العربية: فقد تولّد عنها – أو منها – لغات أو لهجات متعددة بحسب القبائل والجغرافيا، لكن مجيء الإسلام والقرآن الكريم حدّا من اتساع الخلاف واستقلال هذه اللهجات وتباعدها، ومن تولُّد لغات مستقلة، بفضل الإسلام والدولة الإسلامية الواحدة والقرآن الكريم، واستمرار العلاقات والمصالح الاجتماعية والاقتصادية، كل ذلك حفظ الوحدة اللغوية العربية، وإن بقيت بعض الاختلافات والسمات اللهجية، لكنّ أيًّا منها لم يَرقَ إلى أن يكون لغة مستقلة، بخصائص تؤهّلها إلى ذلك، وإن كنا نقرأ أو نسمع أحيانا مصطلحات ليست دقيقة الدلالة، كقولهم: لغة هذيل، أو لغة قيس، أو لغة تميم، أو لغة الحجاز، وغير ذلك، ولكنها كلها لا تحمل سماتٍ أو خصائص تؤهل أيا منها أن تكون لغة مستقلة بالمعنى الاصطلاحي الدقيق.

وسبب ذلك هو الصلات الدائمة والمستقرة بين هذه اللغات (لغات القبائل)، والأصل الواحد المشترك. وبقيت الخلافات بينها خلافات لهجية، تنتمي كلها إلى لغة أُم هي لغة القرآن الكريم، التي تمثّل في جوهرها ومعظمها – لغة الحجاز، وإن كان فيها قراءات تمثّل بعض لغات القبائل المختلفة. ولكن لم تَرْقَ أيّ من تلك اللغات إلى أن تمثل لغة عامة في وجه اللغة الحجازية لغة قريش، أو لغة تميم، لأسباب مختلفة.

ولعلّ سببب سيادة اللغة الحجازية هو الناحية الدينية، واختيار هذه اللغة لغة للتنزيل الإلهي الكريم، وكذا فإن لغة الحجاز كان لها السيادة والانتشار لسبب ديني، إذ إن مكة كانت مقصد الحج قبل الإسلام وبعده، وأسباب أخرى اجتاعية أو اقتصادية تجارية، ولكن بنسبة أقل وأمّا عن لغة تميم فلها السيادة العددية البشرية، ثم الموقع الجغرافي المتوسط في قلب الجزيرة العربية، مما ساعدها في المحافظة على نقاء معجمها وأبنيتها وتراكيبها إلى حد كبير، موازنة بحال غيرها.

ونجد شيئا متفاوتًا عن هذه اللغات- اللهجات- واختلافاتها في المعاجم، وكتب اللغة، وفقهها وغريبها، وكتب النحو والصرف، لكن هذه الخلافات والاختلافات ليست واسعة، كما هو الأمر في اللغات اللاتينية مثلا، فالأصول واحدة، وليست القطيعة بين القبائل واسعة، إذ كانت الجغرافيا قريبة متداخلة بفعل

الصلات والعلاقات الاجتماعية، وقد قرّب بينها ووحّدها دين واحد، وأصول واحدة، وجوار واختلاط، وتاريخ واحد، ومصالح مشتركة متشابكة، كل ذلك وغيره حفظ للعربية وَحدتها وخصائصها المشتركة في مستواها العالي: الديني والفكري والثقافي.

ويجدر بنا أن نتذكر أن التأثر والتأثير متبادل بين اللغة والمجتمع، والتأثير قد يكون واضحا ضارًا بها، إذ ازداد حجم التهديد- أو حتى التداخل- اللغوي من اللغات الأعجمية بخاصة، لما لها من بريق حضاري خلّاب جذّاب للأطفال بخاصة، ولبعض الكبار.

ويزداد الأمر وضوحًا وخطرًا إذا أهملنا لغتنا القومية، وأبناءنا، وقلّ اهتمامنا وعنايتنا بلغتنا القومية، وإذا قصّرنا في تقديمها بثوب قشيب محبّب، وأسلوب منافس جذاب للصغار بخاصة، وللكبار أيضا، في منازلنا ومدارسنا وشوارعنا، ومحالّنا التجارية العامة، ودعاياتنا، وإعلاناتنا، "فدراسة اكتساب اللغة من أهمّ موضوعات علم اللغة النفسي، الذي يدرس كيف يتعلم الطفل اللغة: مفرداتها وقواعد تركيب الكلمة والجملة فيها(٣).

وكما أن لغة الأطفال تختلف: على مستوى المعجم والأصوات والبنى والتراكيب الجملية – تختلف عن لغة الكبار في بعض الجوانب أو أكثرها، فإن لغة الكبار يقع فيها اختلاف أيضًا، فللبيئة أثرها، وللأصول الاجتماعية أيضًا، والمستوى التعليمي والثقافي وغيرها، وللمواقف الاجتماعية للمتكلم والمتلقّي أو المتلقّين، كل ذلك له أثره في اختلاف الأداء اللغوي.

وكذا، فإن لغة الرجال الذكور تختلف في الأداء عن لغة النساء – أعني: العادات الكلامية على مستوى الأداء في الأصوات والمعجم، وعلى مستوى التراكيب أحيانًا بشكل أقل، لأن نظام التراكيب الجملية اللغوية أكثر ثباتًا واستقرارًا، وأقلّ تأثرًا من الأنظمة اللغوية الأخرى. والصفات التي تتميز بها اللهجات تكاد تنحصر في الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها(٤).

كما نلحظ اختلافات لغوية – أو لهجية – على المستوى الثقافي وعلى المستوى الاجتماعي أيضا.

كل هذه الاختلافات نُحسّها ونلحظها، ونلحظ آثارها على مستوى التواصل والمخاطبات. ويحاول علم اللغة الاجتماعي واللسانيات التواصلية تتبُّع تلك المظاهر والظواهر ودراستها وتحليلها، ليخرج بنتائج علمية وتفسيرات، وتوجيهات دقيقة ومفيدة.

وقد ولّد الاهتمام بالعلاقة بين المجتمع واللغة، وبمظاهر هذه العلاقة وآثارها ونتائجها – ولّد ذلك الاهتمام فرعًا خاصًّا ومجالًا متخصّصًا في حقل الدراسات اللسانية، إن على مستوى الأصوات، وإن على مستوى المعجم والدلالة، وإن على مستوى التراكيب والجمل؛ وكل هذه الدراسات أغنت الدراسات اللسانية الحديثة في مجالاتها المختلفة.

فاللغة صورة، أو مرآة تعكس صورة المجتمع: سيرته، وثقافته، وتاريخه، وآفاقه وآماله ومستقبله.

ولا يغيب عن البال أن اللغة تتأثر بأصول المجتمع أيضًا، وعقيدته وعاداته وممارساته أيضًا.

والعلاقة قوية واضحة بين ما تحمله اللغة بألفاظها وتراكيبها وبين ثقافة المجتمع بطرفيه المرسل (المبدع المتكلم)، والمتلقي المستقبل. وعلم اللغة الاجتماعي يبحث في هذه العلاقة وحدودها، وفي الأثر المتبادل بين المجتمع ومفاهيمه وثقافته وعقيدته وتربيته وعاداته من جهة، ولغته من جهة أخرى.

وتزدهر اللغة بازدهار المجتمع ومكوّناته ومتعلقاته، وهي إحدى متعلقاته طبعًا، وقد تتخلّف بتخلّف المجتمع أيضًا، وهنا قد تنهزم أمام اللغة الأخرى، أو تحلّ محلّها اللغة الغازية أو الوافدة، أو تُهجّن باللغة الوافدة، وبخاصّة إن كانت هذه اللغة الوافدة – أو المهزومة أحيانًا – تتميّز بعناصر وخصائص ومزايا ومقوّمات أقوى من خصائص اللغة المنتصرة والأقوى سياسيًّا أو عسكريًّا أو اقتصاديًّا.

وبسبب هذه العلاقة العضويّة المتينة بين اللغة والمجتمع ظهرت وازدهرت دراسات متخصّصة أسّست لظهور علم خاص متخصّص هو علم اللغة الاجتماعي، وقد يطلق عليه علم الاجتماع اللغوي، ويجد الباحث أثرًا أو ذكرًا وإشارة لهذه العلاقة في زمن مبكّر في الدراسات اللغوية العربية القديمة السابقة، وما تركيز السابقين على العلاقة بين المقام والمقال، ومناسبة المقال للحال أو المقام، إلا إحساس ناضج وإدراك ذكيّ ومبكّر لهذه العلاقة، حتى أنهم قصروا البلاغة والتفوّق فيها على " مناسبة المقال للمقام أو للحال".

ونجد اهتمامًا واضحًا لهذه القضية في أزمان وعصور مبكّرة في الدراسات الأدبية واللغوية العربية القديمة للجاحظ (٥)، وابن قتيبة والعسكري والجرجاني، وغيرهم كثيرون من المفسّرين والشرّاح

والبلاغيين.

وقد أكّدوا جميعًا أن اللغة وسيلة تعبير وتواصل، وهي تؤثر في الجماعة أو المجتمع، كما تتأثر به؛ فهي صورة للمجتمع ومرآة له: تعكس سيرته، وتاريخه، وثقافته، وواقعه وماضيه ومستقبله، وعاداته وتقاليده، وأفراحه وأحزانه، وكل متعلقاته.

فاللغة تحمل لنا العلاقة بين معنى الكلمة والعبارة من جهة، وثقافة الفرد والمجتمع من جهة أخرى. وعلم اللغة الاجتماعي يبحث في هذه العلاقة القائمة بين الطرفين وحدودها، كما يبحث في الأثر المتبادل بين المجتمع ومفاهيمه وثقافته وعقيدته وتربيته وعاداته من جهة، ولغته من جهة أخرى.

ولا يغيب عن البال أن اللغة مرآة للمجتمع، تعكس صورة صادقة عنه، تؤثّر وتتأثر به أيضًا، تزدهر وتنهض وتَقوى وتنتشر بازدهاره، وتتكفئ وتتخلّف بتخلّفه، وهنا قد تُهجّن بلغة أخرى، أو تحّل محلها اللغة الأخرى. وتُكتب الغلبة عادة – في صراع اللغات– للّغة الأقوى في عناصرها أو مكوّناتها ومقوّماتها. وقد تكون الغلبة – أحيانًا – للغة الأقوى سياسيًّا أوعسكريًّا، أو اقتصاديًّا أو ثقافيًّا.

وبسبب هذه العلاقة العضوية المتينة بين اللغة والمجتمع وأحواله ومتعلّقاته، ظهرت – كما ذكرنا – علوم متفرّعة متخصّصة، حاولت وتحاول تفسير هذه الظواهر والعلاقات ونتائجها وآثارها، على كِلا الطرفين. فيجدر بنا أن نجدَّ في البحث عنها والاطّلاع عليها، واستيعابها، وحسن الإفادة منها. ولا بأس من الاطلاع على تجارب الأمم الأخرى التي أحسنت في مسيرتها، ولا بأس في الإفادة من تلك التجارب، التي هدفت وتهدف إلى حرص تلك الأمم على نقاء لغاتها وسلامتها، وتهتم بنقل المصطلحات والبحوث إلى لغتها القومية، وهذا ما تحرص عليه الأمم الحيّة، الحريصة على مواكبة العلوم العصرية والإفادة منها، بعد نقلها وترجمتها من لغاتها المختلفة إلى لغاتها القوميّة، ليتسنّى لأبنائها وعلمائها الاطلاع على أحدث ما وصلت إليه الأمم المتقدمة، كما فعلت وتفعل إيران – مثلًا –، إذ تدخّل رئيس الدولة، وأصدر امرًا إلى جميع دوائر الدولة ومرافقها بتغيير جميع المصطلحات الحضارية الأجنبية في إيران إلى اللغة القومية الفارسية الإيرانية (٦)، وهكذا فعلت وتفعل جميع الدول الحيّة التي تحرص على سلامة لغتها ونقائها وسيادتها، ولتواكب أحدث ما تصل إليه الحضارات العالمية تمهيدًا ومفتاحًا للتقدم والسيادة الوطنية القومية.

ويجدر ألّا ننسى أن جذور الملكة اللسانية تتأصل في سنّ الطفولة المبكرة، وأطفالنا – أو معظمهم يقضون هذه المرحلة في أحضان مربّية – أو خادمة – أجنبية أعجمية، وإذا كان بعضهم سعيدي الحظ فإنهم قد يقضون أوقاتًا في أحضان الوالدين والأشقّاء، والأرحام، وهؤلاء جميعًا ألسنتهم ليست سليمة، فهي أعجميّة أحيانًا، أو لهجة عربية سقيمة أثرها أخطر على ألسنة الصغار، وإذا اختلطوا بغيرهم من أبناء الأرحام والأقارب أو الجيران سمعوا لهجات وألفاظًا سوقية وعامّيّة مدمِّرة لألسنتهم وسلوكهم.

ثم يصلون إلى سنّ الدراسة والتعلّم، فنرسلهم إلى مدارس عربية وطنية، أصبح التعليم والتربية فيها مدمِّرًا إلا في حالات قليلة ونادرة، وإما إلى مدارس أجنبية، عنايتها باللغة الأجنبية؛ وذلك سبب وجودها ونسبتها. فأين يَجد هذا الطفل المسكين سلامة اللّسان العربي والتربية اللغوية القومية؟!!

صحيح أنّ بعض النظريات تقرر أن بإمكان الطفل أن يكتسب ويُتقن لغتين في آنٍ واحد، لكن الأرجح أن يجور أحد اللسانين على الآخر، وقد قرّر الباحثون أنّ " اللغة الأصلية تتعرض إلى تأثيرات سلبية حين تزاحمها لغة جديدة، لا سيّما في المراحل التعليمية الأولى"(٧).

وأختم بالقول:

تعزّ اللغة وتَقْوى وتنتشر بعزّة أهلها، وقوّتهم وإخلاصهم، قد تكون القوة دينية أو سياسية، أو عسكرية، أو اقتصادية، أو علمية، أو في أيّ مجال من مجالات الحياة.

والأمة الحيّة العزيزة هي التي تنتهز الفرصة وتُحسن استغلالها، وتُحسن الإفادة من الظروف المواتية لتفرض عزّتها وعزّة لغتها ووجودها؛ والحياة فُرص، علينا أن نُحسن الإفادة منها، وكما جاء في المثل: "إذا هبّت رياحُك فاغتنمها"، وهذا ما فعلته دولة الإمارات العربية الفتية الناهضة الموفقّة بإذن الله، في مجال حماية اللغة العربية وخدمتها ونشرها، بقرارها الشجاع الحاسم العروبي، القومي، والديني المخلص. وهو قرار شجاع حاسم عروبيّ قوميّ ودينيّ، يجب من الجميع تحيتها عليه والثناء عليها؛ وهذا تصديقٌ وخطوات عملية جريئة من حكّام دولة الإمارات، وفي مقدمتهم سمو نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي العربي المسلم الصادق في وعوده، ودعمه للعربية وأهلها، (سمو الشيخ محمد

بن راشد آل مكتوم حفظه الله)، بفضل جهود السادة الأخوة القائمين على المجلس الدولي لحماية اللغة العربية، وجميع الزملاء والعلماء الداعمين والمساندين والمشاركين في هذه الجهود المباركة.

فشكرًا شكرًا يا سموّ الأمير العربي المخلص الصادق، وشكرًا يا دولة الإمارات العربية العزيزة، راجين أن نرى الأثر الحيّ على أرض الواقع، والله يحفظكم ويبارك لكم وفيكم.

وهذه إحدى ثمرات جهود هذا المجلس الكريم - المجلس الدولي لحماية اللغة العربية -الذي يرعى هذه المؤتمرات المباركة، الذي بفضله وفضل جهوده نلتقي ونقدّم أفكارًا وافتراضات لدعم لغتنا الشريفة، وكذا جهود القائمين على رعايته وديمومته، جزاهم الله كل خير، وجزاكم جميعا مثلهم.

أيها السادة المشاركون والمساهمون: جزاكم الله كل خير في الدنيا والآخرة، راجيًا من المولى الكريم أن يوفّقنا جميعًا إلى ما فيه الخير والرفعة لأمتنا وأوطاننا، ولغتنا الكريمة الخلّاقة المباركة.

سائلًا المولى عزّ وجلّ أن يحقق آمالنا، وأن يسدّد خُطانا في خدمة الأمّة ولغتها الخالدة، وأن نرى الأمّة - دُولًا وحكومات وهيئات ومؤسّسات وأفرادًا يسيرون على هذا النهج المبارك الطيّب، وأن نرى أثره على أرض الواقع.

هوامش البحث ومراجعه

١. كتاب " الفلسفة اللغوية، والألفاظ العربية " ص ٤٨ / جرجي زيدان، مراجعة وتعليق د. مراد كامل/ دار الهلال، القاهرة، ط٣ – ١٩٦٩م.

٢. كتاب "أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، (عباس محمود العقاد) ص ١١٥- بتصرف - ط٥، دار المعارف بمصر، ١٩٨٢م.

٣. كتاب "دراسات في علم اللغة النفسي": داود عبده، ص١٠، (ط٢)، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م - (بتصرف).

٤. كتاب " دراسات في علم اللغة الحديث"/ د. صادق يوسف الدباس، ص٨٦، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢، عمان – الأردن.

٥. كتاب " البيان والتبيين " ج١ (ص٣-٢٢) – والكتاب كله بأجزائه الأربعة يطفح بالشواهد والأدلة. (انظر كتاب البيان والتبين: (ج١- ج٤): تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٤، طبعة دار الفكر – بيروت).

٦. كتاب " العرب والخيار اللغوي " / أ.د. أحمد بن محمد الضبيب، (ص١٨٧)، ط١ (١٤٢٧هـ / ٢٠١٦م)، الناشر: نادي القصيم الأدبي- بريدة / السعودية.

٧. كتاب " التربية اللغوية العربية "/ د. عدنان حسن باحارث (ص١٢٥). الناشر: دار المجتمع للنشر والتوزيع/ ١٤٢٦هـ، جدّة - المملكة العربية السعودية، ط١ (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).